الفصل الرابع

العصر الإسلامي

أول توثيق للظاهرة في العالم

الشيخ الرئيس أفضل الحكماء أبو علي الحسين بن سينا البخاري

العصر الإسلامي

أول توثيق للظاهرة في العالم

يعود تاريخ التوائم الملتصقة (السيامية) إلى مئات؛ بل إلى آلاف السنين، ولم يكن التوثيق منصفًا للأمة العربية والإسلامية؛ إذ أن معظم مراجع الطب العالمية أغفلت ذكر التوائم السيامية في بداية العصر الإسلامي ولم تذكر أي شيء عنها، وهي فترة بما تمثل أول عهد لتوثيق هذه الظاهرة في العالم. وتاريخ التوائم الملتصقة (السيامية) حافل بالعبر والشواهد، وفيه من الطرائف ما يجعله شائقًا وممتعًا.

ونتحدث في هذا الفصل عن هذه الظاهرة في العصر الإسلامي، وفي الفصل التالي نتناولها في سياق التاريخ العالمي مستعرضين نماذج من التوائم التي خلدتها الوثائق والسجلات الطبية القديمة نتيجة لشهرتها.

لتوائم السيامية في العصر الإسلامي: بدايات فقهية

يُعدُّ التوأم السيامي الذي وُلِدَ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الأول من نوعه الذي يُوَثَّق تاريخياً، ويوصف دقة، وتُناقش حالته بصورة علمية دقيقة رغم محدودية الإمكانات والمعلومات الطبية آنذاك. وقصة هذا التوأم أنهما ولدان خرجا متصلين بالصدر والبطن والحوض، ولكل منهما أطراف علوية مستقلة ورأس وجهاز تناسلي وفتحة شرج مستقلة كذلك، فحار الصحابة في هذا الحدث وطرحوا أسئلة فقهية قيمة ومهمة لأنهم نظروا إليها ـ بحكم تربيتهم وتكوينهم الثقافي عبر هذه الزاوية، ومن هذه الأسئلة:

١ ـ هل يعتبر التوأم شخصًا واحدًا أو شخصين؟

٢ ـ كيف يُقسَّم الإرث؟

٣ ـ ما حُكمُ النكاح؟

٤ ـ ما حُكم الفصل إذا تُوفِّيَ أحد التوأمين؟

ولأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتَّصفون دائمًا بالحكمة والحنكة، ويجعلون أمرهم شورى بينهم؛ فقد استشار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ فجاءته إجابته حكيمة بليغة تُمثِّل رأياً سديدًا، أشار عليٌّ في حكمه على الحالة بالآتي:

- مراقبة التوأم عند النوم؛ فإذا نام في نفس الوقت فهما شخص واحد، وإن اختلفا في نومهما فهما شخصان.
- مراقبة التوأم عند البول والبراز؛ فإن كان الحدث في نفس الوقت فهما شخص واحد، وإن اختلفا فهما اثنان.
- عدم إجازة الزواج لأن الاطلاع على عورة الآخر حرام ما داما ملتصقين.
- عند موت أحدهما يجب عدم فصله عن الحي؛ لأن ذلك سيؤلمه وقد يؤدي إلى وفاته.. وذهب الحكمُ إلى غسل الميت وكفينه ثم تكليف شخص يحمله مع أخيه حتى يجف، ثم يقطع بعد ذلك دون إحداث ألم للآخر

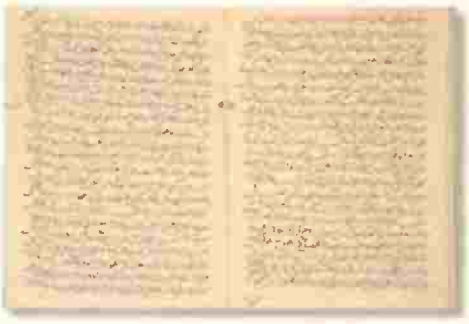

الحي. غير أن التوأم الحي لم يعش بعد وفاة أخيه، وقيل أنه توفي بعد ثلاثة أيام، وقيل بعد ساعات وهذا هو الأرجح لقد كانت رؤيتهم للظاهرة وحكمهم عليها ـ رغم ضعف الإمكانات ـ وافية وعلمية إلى حد كبير، فها نحن بعد ١٤٠٠ عام لم نُدخل على هذه الأحكام تغييراً يُذكر. وبرغم أن تقنيات التشخيص المعاصرة فتحت لنا آفاقًا علمية جديدة وساعدتنا أكثر فأكثر؛ إلا أن الأصلَ واحدٌ، ذلك أن التوأم الملتصق ـ عند توافر مقومات حياة منفصلة ـ يُعتَبرا شخصين، أما إذا اشتركا في الأجهزة الأساسية كالمخ والقلب فهما شخصٌ واحد.

وروى ابن الجوزي في المنتظم وابن كثير في البداية والنهاية أن بعض بطارقة الأرمن أنفذ في سنة ٣٥٢هـ رجلين ملتصقين ومعهما والدهما إلى صاحب الموصل الملك ناصر الدولة بن حمدان، وكان عمر التوأم ٢٥ سنة، وكان لهما سرتان وبطنان ومعدتان، ويحس كل واحد منهما بالجوع والعطش في وقت مختلف عن الآخر؛ بل يختلفان في ميولهما ويقع بينهما أحيانًا شجار قد يصل إلى حدِّ الخصومة، ولكنهما سرعان ما يصطلحان. استقبلهما ناصر الدولة ووهبهما ألفي درهم ودعاهما إلى الإسلام، ويُقال أنهما استجابا للدعوة وأسلما، ثم أراد فصلهما وجمع الأطباء لهذه المهمة ولكنه لم يفعل. ولما عادا إلى بلدهما مات أحدهما فحار أبوه في فصله عن أخيه، ولكن ما لبث أن اعتل الآخر من غمه ونتْن أخيه؛ فمات غمًّا فدفنا في قبر واحد. ويكشف لنا تفكير الملك ناصر الدولة في جمع الأطباء لمحاولة فصلهما؛ نضج العقلية العلمية الإسلامية، وأن حضارتها كانت متقدمة كثيرًا على الحضارات المعاصرة، وشهرة الأطباء المسلمين ذائعة بين القادة والحكام والشعوب في مختلف الأمصار والبلدان. كما ورد في: (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) للحافظ الأصبهاني، وفي: (مقالات الأدباء ومناظرات النجباء) لابن هذيل، وفي: (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي توثيقًا لفصل توأم سيامي في التاريخ الإسلامي القديم برواية مباشرة على لسان الإمام الشافعي، مع تطابق مفردات الرواية في المراجع التراثية الثلاثة سوى اختلاف يسير جدًّا بينها يتعلق بزيادة جملة أو جملتين في نصِّ اثنتين منهما. تقول الرواية كما وردت في مقالات الأدباء: قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ بينما أنا أدور في طلب الحديث؛ إذ دخلتُ إلى أرض اليمن، فقيل لي إن ههنا امرأة من وسطها إلى أسفل بدن امرأة، ومن وسطها لى فوق بدنان مفترقان بأربع أيدي ورأسين ووجهين. فأحببتُ أن أراها، فلم أستحلَّ أن أنظر إليها، فذهبتُ فخطبتها إلى أبيها فزوَّجنيها. فنظرتُ فيها وهي على ما وُصف لي من وسطها إلى فوق بدنين بأربع أيدي ورأسين، فلعهدي بهما يتقابلان ويتلاطمان. ويصطلحان، ويأكلان، ويشربان. ثم إني نزلتُ عنها وخرجت عن ذلك البلد، فأقمت برهة من الزمان ثم رجعتُ، فدخلتُ إلى ذلك البلد، فذكرتُ ذلك الشخص فسألتُ عنه، فقيل لي: أحسن الله تعالى عزاءك في الجسد الواحد فتعجبت من ذلك وقلت: كيف صُنع بها؟ وكيف كان أمره؟ فقيل لي: إنه توفى الجسد الواحد، فعُمد إليه فربط من أسفله بحبل وثيق، وترك حتى ذبل فقطع ودُفن. قال الشافعي: فلعهدي بالجسد الآخر في الطريق ذاهبًا وجائيًا، فسبحان خالق كل شيء.